بايعناك
PLEDGE ALLEGIANCE TO YOU
سماحة الامين العام لحزبة الاسلام و المسلمين الشيخ نعيم قاسم

لو خضت البحر لخضناه

سيدنا...
أنت المفضل
في لائحة
المحبين

بهاء الحسيني

أيقونة حسن نصرالله
شخصَنة المقدّس عند شيعة لبنان

أمم
للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research

بهاء الحسيني

أيقونة حسن نصرالله
شخصَنة المقدّس عند شيعة لبنان

تمهيد

إن التقديس هو ميزة إنسانية بامتياز، وعلاقة الإنسان به هي علاقة معقَّدة ومتشعِّبة. التقديس هو نتاج تطوّر الفكر الإنساني وابتداعه للمفاهيم الكلّية[1]. فالحيوان لا يقدِّس الأشياء، بل يتعامل معها بحسب غريزته الوجودية التي تلبّي حاجات اتمراريته على قَيد الحياة.

رافَق التقديس الإنسان منذ نشأة المجتمعات الإنسانية الأولى، فقدَّس «الطوطَم» ككائن أو كيان مقدَّس على أشكاله العديدة كحيوان أو نبات أو قوى طبيعية واعتبره كرمزٍ للجماعة وتجسيدٍ لقيَمها المحوَرية، وأحاطه بـ«تابو» من المحظورات والمحرَّمات كسلاح حماية له.

وهكذا أصبح هذا الإنسان مع تقادُم الزمان يقدّس أشياء متنوّعة وأكثر تعقيدًا، منها ما هو محسوس مادي ويدخل ضمنه الزمان والمكان، كتقديسه الأماكن والمناسبات، ومنها ما هو مجرد لا يُدرَك بالحسّ، كتقديسِه للآلهة والملائكة والأرواح وغيرها. فباتت هذه الأشياء هي المقدّس عنده وتحظى بالاحترام، وتربطه بها علاقة دنيوية ودينية غيبية أيضًا.

ونتيجة لتنوُّع الثقافات والتجارب عند الشعوب، كان من الطبيعي أن تتنوّع المقدّسات، ولو أنها كانت في جزء كبير منها تشترك في بعضها. فكان أن جاء الإسلام ومعه مقدّساته الخاصة، ثم كان للشيعة مقدّساتهم الخاصة بعدما تشعَّب المسلمون مذاهب شتّى، بدءًا من العصر الأموي على أبعد تقدير.

الاشكالية التي نطرحها هنا تتمثّل في البحث عن مفهوم المقدّس عند الشيعة، وكيفية توسّع هذا المفهوم بعد الثورة الإسلامية في إيران، وبالأخصّ بعد تبنّي ولاية الفقيه كجوهر لهذه الثورة[2]. وقد أسفرت هذه التغيّرات عن تأثيرات كبيرة على واقع شيعة لبنان عبر العقود، نتيجة للروابط العقائدية والفقهية والسياسية والعسكرية المتينة بين الطرفين. هذا التقديس الذي خرَج من إطاره الدّيني المبني على العلاقة مع الله ضمن إطار الدّين إلى مختلف مجالات الحياة، فبات يهيمن على واقع الشيعة السياسي والاجتماعي والثقافي والتربوي وغيرها من المجالات. ولبِست مختلف العناوين في هذه المجالات المذكورة لباسًا دينيًّا أفضى إلى اعتبارها مقدّسة، وبالتالي إلى اعتبار التعرّض لها من المحرّمات، حتى وصل الأمر إلى ذروته في عهد الأمين العام السابق حسن نصرالله، عن طريق القوة والهيمنة والسيطرة، فأصبح محاطًا بدائرة أو هالة من التحريم والتقديس المطلق.

إن الاشكالية التي نطرحها هنا تكمن في البحث عن المقدّس عند الشيعة، وكيف توسّعت علاقاته مع الثورة الإسلامية في إيران وجوهرها، أي ولاية الفقيه، وما رافق ذلك من انعكاسات على واقع شيعة لبنان على مرِّ

(١) المفاهيم الكُلِّيّة هي المفاهيم التي لا يَمتنع صِدقُها على أكثر من فرد

(٢) أسَّس الخميني لمفهوم ولاية الفقيه من خلال محاضراتٍ ألقاها في النجف الأشرف بالعراق، تناول فيها الحكومة الإسلامية ومحورية ولاية الفقيه، والتي اعتبرها من الأمور البديهية. وقد جُمعت هذه المحاضرات لاحقًا في كتاب بعنوان «الحكومة الإسلامية»، مستندة إلى دروس فقهية ألقاها على طلبته في أواخر سنة ١٩٦٩..

#أمرنا_أمرك

عقود من خلال ذلك الارتباط العقائدي والفُقهي والسياسي والعسكري المتين بين الطرفين. هذا التقديس الذي خرج من إطاره الدّيني المبني على العلاقة مع الهر ضمن إطار الدّين إلى مختلف مجالات الحياة، فبات يُهيمن على واقع الشيعة السياسي والاجتماعي والثقافي والتربوي وغيرها من المجالات. وأُلبِست مختلف العناوين في كافة هذه المجالات المذكورة لباسًا دينيًّا أفضى إلى اعتبارها مقدّسة، وبالتالي إلى اعتبار التعرُّض لها من المحرمات.

وهكذا، بعد أن كانت الطائفة الشيعية معروفة بتنوُّعها في مختلف الميادين، وتذخَر بشخصيات ونتاجات لمّاعة في مختلف المراحل التاريخية والثقافية بعد نشأة الكيان اللبناني، طغَت عليها في العقود الأخيرة العَسْكرة والأدْلَجة المحاطتان بهالة من القدسية بحيث يكون كل شيء آخر فداء في خط هذا النهج الذي يجد نفسه مرتبطًا عضويًّا، بل ذائبًا في مبدأ الولي الفقيه ودولته المقدّسة.

المقدّس لغةً وإصطلاحًا

المقدّس لغةً، عند اللغويين كابن منظور[٣] والجوهري[٤] هو المطهَّر والمبارَك، ومعنى تقدّس أي تطهَّر، والتقديس هو التطهير والبرَكة. وكما عرَّفه دوركهايم فهو ما يتعارض مع المدنَّس.

أما اصطلاحًا فهو مفهوم معقَّد وغير قابل للانضباط إلى درجة أنه يقع الاختلاف فيه بين الأديان السماوية والوضعية بسبب تنوُّع الثقافات والتجارب التاريخية وتبايُن المعايير والأدوات اللازمة له، وحتى أن هذا الاختلاف يقع داخل الدّين نفسه، لا بل داخل المذهب نفسه. ولذلك يعتبر عالم الاجتماع والأنثروبولوجيا روجيه كايوا أن المقدّس يشكِّل طاقة خفيّة على الفَهم عصيَّة على الترويض شديد الفاعلية.

إن رسوخ مفهوم المقدّس عند الشيعة بات مع الزمن يتوسَّع وتُضاف إليه عناوين جديدة وبِدع لم يعرفها القدماء منهم. وفي عصرنا هذا باتت ما تُعرف بولاية الفقيه من المقدّسات عندهم لارتباطها بالإمامة في عملية تأصيل ذهنية وتأويلات نصوصية متشابكة.

المقدّس الشيعي عبر التاريخ

إن المقدّس الأول بالأصالة عند جميع المسلمين عمومًا، ومنهم الشيعة الاثني عشرية، هو الله. فقدسيّته تتأتّى من ذاته، وهو مصدر كل خير والفيّاض دون توقّف. وقدسية أي شيء غيره مرتبطة به أيضًا. إن قدسية غير الله هي قدسية ارتباطية بالغير الذي ليس هو إلّا الله، ومنه تُستمد. فالمقدّس إذن مصدره الله.

ومن المقدّس أيضًا مفهوم المعصوم. ومصطلح المعصوم عند الشيعة يشمل الأنبياء والأئمّة الاثنا عشر، ويمكن أن يضاف إليها شخصيات أخرى كفاطمة الزهراء بنت النبي محمد. وتعريف العصمة هي، كما عند شيخ الطائفة الإمامية الاثني عشرية، «المفيد»[٥] هو لطفٌ يفعله الله بالمكلَّف، بحيث تلجِم العصمة وقوع المعصية، وترْك الطاعة، مع قدرة المعصوم عليها. إن قدسية المعصومين عند الشيعة مرتبطة بنحو ما بالعصمة نفسها، تلك العصمة المرتبطة بالطهارة والتطهير، وتأويلهم لآية التطهير يصبّ في هذا الاتجاه. وكارتباط بالمقدّس عندهم، باتت متعلّقات المقدّس مقدّسة أيضًا. ومن الأمثلة على ذلك مقامات (مراقد) الأئمّة وتربة مقاماتهم وآثارهم الجسدية كمكان موقع رأس الحسين مثلًا، وأشياءهم التي بقيت منهم كالثياب وغيرها وغيرها. كما يشمل المقدّس مراقِد الأنبياء والمسجد النبوي والمسجد الأقصى وغيرها.

ومن المقدّس أيضًا عندهم الكتب السماوية، ومنها القرآن، ثم باقي كتب التراث التي حفظت لهم المذهب عبر التاريخ.

كما يدخل في المقدّس عند الشيعة وغيرهم مصطلح الشعائر[٦]. ومن هذه الشعائر الشيعية الخاصة الثابتة شعيرة إحياء عاشوراء وشعيرة يوم الغدير، اليوم الذي يعتبره الشيعة يوم تنصيب النبي محمد لابن عمّه وصهره الإمام علي بن أبي طالب خليفة له على المسلمين وإمامًا من بعده، وغيرها من الشعائر مما هو مرتبط بالدّين عمومًا وبالنبي وآل بيته بشكل خاص.

---

(٣) ابن منظور هو أديب ومؤرخ وفقيه لغوي من أبرز علماء عصره، واشتهر بتبحره في علوم اللغة والأدب والتاريخ. عُرف بموسوعته الشهيرة «لسان العرب»، التي تعد من أعظم معاجم اللغة العربية، إذ جمع فيها أمهات كتب اللغة، بالإضافة إلى عمله الموسوعي، ترك أثرًا عظيمًا في ميادين الأدب والنحو، وكان يشغل وظائف علمية مرموقة في كل من مصر وطرابلس الغرب. توفي عام ١٣١٢ مخلفًا إرثًا علميًا خالداً..

(٤) الجوهري هو معجمي ولغوي بارز، وُلد في مدينة فاراب الواقعة في كازاخستان، ويُعد من كبار علماء اللغة في عصره. اشتهر بكتابه «تاج اللغة وصحاح العربية»، الذي يُعد من أوائل المعاجم التي جمعت مفردات اللغة العربية بطريقة منهجية. تميز عمله بالدقة والابتكار، وكان مرجعًا أساسيًا لعلماء اللغة والنحو في القرون اللاحقة. إلى جانب إسهاماته في مجال المعاجم، كان الجوهري يمتلك معرفة واسعة في علوم أخرى كالنحو والأدب. توفي عام ١٠٠٢ تاركًا إرثًا علميًا خالدًا أسهم في الحفاظ على اللغة العربية ونشرها.

(٥) «المفيد» هو فقيه ومتحدث ومتكلّم شيعي اثنا عشري، يُعدّ من أعلام الفكر الشيعي في العصر العباسي. اسمه الكامل محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي، وُلِد عام ٩٤٨ في بغداد، ونشأ فيها. اشتهر بلقب «المفيد» لما امتاز به من علم غزير وقدرة على الإقناع في المناظرات العلمية والدينية. انتهت إليه رئاسة متكلّمي الشيعة في عصره، حيث تميّز بدوره في الدفاع عن المذهب الإمامي وتوضيح عقائده، مما جعله مرجعًا علميًا وفكريًا لعلماء الشيعة من بعده. كان من أبرز أساتذته الشيخ ابن قولويه القمّي، وتخرّج على يديه عدد من العلماء البارزين مثل الشيخ الطوسي. ترك العديد من المؤلفات في العقيدة والفقه والكلام، من أشهرها كتاب «أوائل المقالات» و«الإرشاد». توفي في بغداد عام ١٠٢٢ م (٤١٣ هـ)، ودفن بالقرب من مرقد الإمام الكاظم.

(٦) في التعريفاتِ المرتبطة بالتُّراث الشِّيعي، وبحسب المحقِّق أحمد بن محمد الأردبيلي، فإنَّ الشَّعائر تُحمَل «على المعالِم، أي حُدود الله وأوامره ونَواهِيه، وقِيلَ هي فرائضُه». إذًا «هي مظاهرُ ومعالمُ العبادة وممارستُها من دعاءٍ أو صلاةٍ أو حجٍّ أو غيرها، وهي أفعالٌ لها دلالةٌ رمزيَّة وتؤدَّى على حِقَبٍ زمنيَّة محدَّدة أو في مناسباتٍ خاصَّة في الغالب». أمّا الطُّقوس في الإطار الشِّيعي، فإنَّها «مجموعةٌ من القواعد التي تَنتظِمُ بها ممارساتُ الجماعة، إما من خلالِ أداءِ شعائرِها التي تُعَدُّ مُقدَّسة أو من خلال تنظيمِ أنشِطَتِها الاجتماعيَّة والرمزيَّة وضبطِها وِفقَ شعائرَ منتظِمة في الزمان والمكان». وتاليًا، هناك فارقٌ بين الشَّعائر الدِّينيَّة للطائفة، والتي لها أصلٌ تَشريعيٌّ دينيٌّ ولها الدلالة المُلزِمَة المقدَّسة بالنسبة إلى المؤمِنين، وبين طُقوس مُجتمعِها، والتي هي عِبارةٌ عن مُمارساتٍ أَوْجدَتها الجموعُ لإحياء ذكرى أو مناسبة ترتبطُ بالطائفة. فالشَّعائر هي هويَّة الطائفة، بينما «تُمثِّل الطُّقوس هويَّة المجتمع بالدرجة الأساس».

إلى جانب الشخصيات المقدّسة شيعيًّا، هناك آخرون، يأتون بالدرجة الثانية، ويحظون بذلك الاحترام والتبجيل الكبيرأيضًا، وهم رجال الدّين. وأعلى هؤلاء مرتبة وتبجيلًا هم، المراجع الدّينيون المجتهدون[٧] الذين يرجع إليهم عامة الشيعة في مسائلهم الدّينية وهم غير محصورين جغرافيًّا بمكان، ويليهم المجتهدون المحلّيون، ثم مَن هم دونهم مرتبة من رجال الدّين. وقد حفل التاريخ الشيعي اللبناني بشخصيات كان لها ذلك الحضور وتلك التجارب في زمانها، ومنها أبو الفتح الكراكجي الطرابلسي (توفي ١٠٥٧م)، ومحمد بن مكي الجزيني المعروف بالشهيد الأول (توفي ١٣٨٥م) وزين العابدين الجبعي المعروف بالشهيد الثاني (توفي ١٥٥٩م) ومحمد بن الحسن المعروف بالحرِّ العاملي (توفي ١٦٩٣م)، وغيرهم كُثر.

من مسيرات حزب الله في عاشوراء

واقع شيعة لبنان السياسي حتى مجيء موسى الصدر

أثناء فترة تكوُّن دولة لبنان الكبير والانتداب الفرنسي عليه، تنوَعت المواقف الشيعية من هذا الكيان الجديد، رغم انخراط العديد من النُخب الشيعية، وخصوصًا من ملّاك الأراضي والاقطاعيين، ووجود العديد من الشخصيات المتردّدة في إعلان موقفها منه، إلّا أن الجوّ المهيمن كان في الجانب الرافض له والداعي إلى الاندماج في المشروع السوري أو إلى نوع من الاستقلال الذاتي تحت حكم الأمير فيصل.

مع الحملات الفرنسية على جبل عامل والبقاع، ثم مع إنشاء الكيان الجديد الذي بات أمرًا واقعًا لا مفرَّ منه، عدَلت الكثير من الشخصيات والنُخب الثقافية والسياسية عن موقفها الرافض، وشرَعت في الانخراط التدريجي في هذه الهوية اللبنانية الجديدة، وخصوصًا بعد الاعتراف بالطائفة الشيعية كطائفة مستقلّة عام ١٩٢٦ وإنشاء محاكم شرعية لها، وما تلاها من خطوات أخرى كاستقلالية الوقف الخاص بها، وغيرها من الأمور، وهو ما كانوا يفتقدونه خلال فترة الحكم العثماني. إلّا أن هذا الأمر لم يمنع من بقاء نُخب ثقافية وسياسية على موقفها الرافض ومشاركتها في مؤتمرات الساحل والأقضية الأربعة التي كانت تدعو للوحدة السورية والعربية. واستمر هؤلاء في نشاطهم هذا حتى عام ١٩٣٦، حيث كانت المعاهدتين الفرنسية السورية والفرنسية اللبنانية تنصّان على تثبيت الحدود الجديدة وإنهاء حكم الانتداب، بمثابة المسمار الأخير في نعْش مشروعهم الرافض وفي تثبيت أُسُس الكيان اللبناني.

خلال فترة مخاض لبنان برزت العديد من الشخصيات الدّينية الشيعية التي لعبت أدوارًا سياسية، ومنها، مع اختلاف مستوى الأدوار، الشيخ محمد تقي الفقيه والسيد عبد الحسين نور الدّين والسيد محسن الأمين وغيرهم. وأما أبرزهم فكان السيد عبد الحسين شرف الدّين الذي كانت تربطه بالعصابات المسلّحة علاقة وطيدة، وهو مَن تلا مقررات مؤتمر الحجير. وقد تعرَّض للنفي بعد حملة الكولونيل نيجر[٨]، ثم أصبحت علاقته بهم جيدة في ما بعد وباتوا يلقّبونه «سيد المتاولة الكبير».

بعد نيل لبنان استقلاله عن الفرنسيين أواخر عام ١٩٤٣، خلَت الساحة للزعامات التقليدية الشيعية من العائلات ملّاك الأراضي، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر آل الأسعد وآل الزين وآل عسيران في الجنوب، وآل حيدر وآل حمادة وآل مرتضى في البقاع، وآل الحسيني في جبل لبنان. وهؤلاء استطاعوا أن يثبتوا مواقعهم داخل المؤسسات الرسمية في البلاد منذ نشأتها. وكان سلوك هؤلاء السياسي ذو طابع وطني عام، وشبكة علاقاتهم، بحسب واقع لبنان الطائفي، بعيدة من الانزواء عن بقية المكوّنات اللبنانية.

وانخرط الكثير من شباب الطائفة في مختلف الأحزاب على تنوّع توجّهاتها، من يسارية وقومية واشتراكية وغيرها. كما شهدت الساحة الشيعية محاولتين لإنشاء أحزاب شيعية تستقطب الشبان الشيعة خلال فترة الأربعينات، هما حزبا «الطلائع» و«النهضة». إلّا أن هاتين المحاولتين لم يكتب لهما الاستمرار إلّا لسنوات قليلة، فأُلغيت تراخيصهما عام ١٩٤٧.

وقد لعب السياسيون الشيعة خلال هذه الفترة أدوارًا مختلفة داخل الدولة وخارجها، وأغلبها ما كان يتعلق بحقوق الطائفة الشيعية. كما كانت لهم أدوار في المعتركات والخلافات التي كانت تقع، منها أزمة عام ١٩٥٢ واستقالة بشارة الخوري وانتفاضة عام ١٩٥٨ ضد حكم كميل شمعون، وغيرهما.

(٧) المرجع الديني عند الشيعة هو الشخص الذي بلغ مرتبة الاجتهاد في استنباط الاحكام الشرعية، ويرجع اليه عامة الشيعة في المسائل الفقهية من خلال اتباع رسالته العملية. (يراجع في هذا الخصوص كتاب الشيعة في لبنان، طقوسًا ومجتمعًا وثقافة، إصدار «أمم»).

(٨) أمر فصيلة صور في الجيش الفرنسي.

كانت الجماهير الشيعية خلال تلك الفترة تنظر باحترام الكبير للشخصيات والأحزاب السياسية التي تتبعها، لكن بعيدًا عن فكرة التقديس لهم. وكذا كان الحال تجاه رجال الدّين الشيعة، فكانوا ينالون نصيبًا كبيرًا من التقدير، سواء منهم الذين تبوّأوا مناصب رسمية داخل الدولة، أو الذين كانوا خارجها. وكان الجو العام الطاغي على رجال الدّين خلال تلك الفترة يدور بين اعتزال السياسة أو الدوَران في فلك الشخصيات السياسية. كما كان هناك مَن يعمل انطلاقًا من باب التوجيه والنقد السياسي من أجل المراقبة. إذًا، لم تشهد هذه الفترة تقديسًا لشخصيات دينية أو سياسية رغم أن دولة الطوائف اللبنانية بعد نَيْل الاستقلال عمدت إلى ترسيخ الطائفية على قاعدة توزيع المناصب.

وبقي الأمر على المستوى الشيعي على هذا المنول حتى مجيء موسى الصدر إلى لبنان عام ١٩٥٩ لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل تاريخ شيعة لبنان، مرحلة جرى خلالها تنصيب رجل الدّين الشيعي على رأس الطائفة.(يراجع في هذا الخصوص كتاب: تاريخ شيعة لبنان من الماضي الغامض الى المستقبل المجهول، اصدار «أمم»).

موسى الصدر، العباءة الدّينية إلى القيادة

عمل موسى الصدر على الدخول إلى الساحة الشيعية وتوطيد دوره من خلال العمل الاجتماعي والثقافي والسياسي والدّيني، ونسجَ علاقة جيدة مع العهد الشهابي الذي أعطاه الجنسية اللبنانية والذي نالت الشيعة في عهده فرصة تنظيم شؤونها ودخول عالم المؤسّسات من خلال إنشاء «المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى»[٩] الذي قام بانتخاب السيد موسى الصدر رئيسًا له. وهكذا بات للطائفة الشيعية منصب زعامة سياسي جديد إلى جانب المجلس النيابي.

كان لنشاط الصدر هذا تأثيره في الشارع الشيعي، فبدأت تلتفّ حوله شعبية يُحسب لها الحساب في مواجهة الزعامات الشيعية التقليدية التي كانت تعتبر أن وظيفة رجل الدّين يجب ألّا تعدو البتّ في الفتاوى وإسداء النصح. كما أثارت حركته الصاعدة هذه قلق الأحزاب اليسارية والقومية التي كانت ولأسباب متنوّعة يرفدها بشكل كبير الغالبية من الشباب الشيعي.

يمكن الاعتبار أن حقبة موسى الصدر، منذ مجيئه إلى لبنان عام ١٩٥٩ وحتى اختفاءه عام ١٩٧٨، قد شهدت بداية بلوَرة لنوعٍ من القُدسية لرجل الدّين المنخرط في المجال السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي بعد أن كان في موقع المعتزل أو الموجِّه والناصح. فالعناوين التي رفعها الصدر وعمل عليها وبلوَر خطابه على أساسها أسّست لعلاقة عاطفية شعبوية مع الجماهير، علاقة فيها شيء من تأسيس التقديس لشخصه.

وقد ظهر ذلك مبكرًا في مدينة صور إثر الإشاعة التي رُوِّجت وطالت شخصه مطلع آب ١٩٦٦ بعدما اتهم شاب الصدر بأنه قد أُعجب بفتاة كان هو قد كان على علاقة معها سابقًا، بعدما لجأت والدتها إلى الصدر لحمايتها من أبيها الذي كان يُريد قتلها. فقد نتج عن ذلك التعرُّض المعنوي له، تظاهرات تأييد ودعَوات للعصيان والإضراب وبرقيات شجب وتنديد وغير ذلك من المواقف المستنكِرة لما حصل، في حدثٍ أدّى إلى ظهورهالة خاصة حول شخص الصدر تختلف عما هو موجود عند غيره ممّن يتعاطون شؤون السياسة والاجتماع وغيرهما. (يراجع في هذا الخصوص كتاب: تاريخ شيعة لبنان من الماضي الغامض الى المستقبل المجهول، اصدار «أمم»).

كان الصدر يركز في خطاباته ومؤتمراته وتصريحاته على ثلاث نقاط، كانت تترك الأثر الوجداني عند المستمعين الشيعة وتجذبهم: وضع الجنوب الواقع بين فكّي كمّاشة النشاط العسكري الفلسطيني وإسرائيل، الطائفية، والأحوال الاجتماعية والاقتصادية للشيعة التي كان يرفدها بعنوان الحرمان وبطلَب المساواة والعدالة المفقودة. فكان أن بدأت لغة خطاباته مع الوقت بالتصعيد، ومنها ما كان في حضور جماهيري مسلّح كما في البقاع، وفي توجيه الرسائل لمَن يريدون منه الاهتمام بالشؤون الدّينية فقط على حساب باقي العناوين كوْن العبرة بالقدرة على تحقيق المطالب لا بالتغنّي بها وتعدادها على المنابر وفي المناسبات، فراح يخاطب الجماهير: « قررنا في المجلس الشيعي الأعلى، المؤسَّسة التي تنطق باسمكم، أن أكون أنا صاحب الدعوة إلى كل شيء».

كان الصدر يسعى إلى مركَزة القيادة في شخصه، هادفًا من ذلك إلى توحيد الشيعة اللبنانيين تحت قيادة واحدة. كما سعى لتأسيس حزب مسلَّح لما يراه حماية لبنان، وتغزَّل بالسلاح مرارًا حتى قال في احتفال الجامع العمري في صيدا: «السلاح زينة الرجال ونحن مع هذا السلاح... ». بعدها شهد عام ١٩٧٥ تمديد ولايته لرئاسة المجلس الشيعي حتى سنِّ التقاعد عند عمر ٦٥ عامًا، وتأسيسه تنظيمًا شيعيًّا مسلّحًا أسماه «أفواج المقاومة اللبنانية» (أمل). وهكذا بدأ الصدر يجمع بين قيادة الطائفة والميليشيا.

(٩) المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى هو هيئة دينية ورسمية تمثل الطائفة الشيعية في لبنان. أُسِّس بموجب قانون قدمه النواب الشيعة وأقره البرلمان اللبناني في ١٦ أيار ١٩٦٧. كان الهدف الأساسي من تأسيس المجلس تعزيز دور الطائفة الشيعية في الحياة السياسية والاجتماعية اللبنانية وضمان حقوقها ضمن الإطار الوطني العام. بعد إقرار القانون، صدر مرسوم إنشائه في الجريدة الرسمية بتاريخ ٢٥ كانون الأول ١٩٦٧. يتولى المجلس إدارة شؤون الطائفة الشيعية في لبنان، بما في ذلك الإشراف على الأوقاف والمؤسسات الدينية والتعليمية والخيرية، والعمل على تمثيل مصالح الطائفة في الدولة. كما يُعتبر المجلس المرجعية العليا للطائفة الشيعية في القضايا الدينية والاجتماعية والسياسية.

موسى الصدر

ومـع توسُّـع الثـورة الشـعبية فـي إيـران ضـد نظـام الشـاه، كان لقـرب الصـدر مـن التيـارات الإسـلامية فـي الثـورة تأثيـره الكبيـر فـي ذلـك التأجيـج الطائفـي للجمهـور الشـيعي العـام فـي لبنـان والـذي كان قسـم كبيـر منـه، وبطبيعـة الحـال، مؤيّـدًا لإسـلاميّتها. لكـن لـم يقدَّرللصـدر أن يشـهد نجاحهـا وسـقوط الشـاه، فاختفـى بشـكل غامـض بعـد زيـارة إلـى ليبيـا فـي آب مـن عـام ١٩٧٨ إثـر دعـوة مـن رئيسـها معمـر القذافـي.

إن علاقـة الشـيعة مـع الغيبـة علاقـة وجدانيـة راسـخة علـى مـرِّ العصـور. فالشـيعة اللبنانيـون الذيـن ينتظـرون إمامهـم الغائـب المهـدي منـذ مئـات السـنين[١٠] وجـدوا أنفسـهم ينتظـرون غائبًـا جديـدًا هـو الإمـام موسـى الصـدر، فـكان لغيبتـه هـذه أن رسّـخت، وبشـكلٍ لاواعٍ هالـة القدسـيّة التـي رافقـت هـذه الشـخصية.

ولايـة الفقيـه: قدسـية جديـدة واسـتخدام الوسـائل الممكنـة

بعـد نهايـة الغيبـة الصغـرى للإمـام الثانـي عشـر للشـيعة الاثنـي عشـرية محمـد بـن الحسـن المهـدي[١١] ووفـاة نائبـه الخـاص (السـفير/ البـاب) الرابـع علـي بـن محمـد السـمري عـام ٩٤١م (٣٢٩هـ)، بـدأت الغيبـة الكبـرى ولـم يعـد هنـاك مـن وسـطاء خاصّيـن مباشَـرين بينـه وبيـن عامـة الشـيعة. وبـات الفقهـاء (رجـال الدّيـن) الشـيعة بمثابـة النـواب العامين فـي عصـر الغيبـة عبـر الاجتهـاد فـي تأويـل النصـوص، وهـو رأي رفضتـه جماعـة داخـل الطائفـة وهـم الإخباريـون.

كانـت ولايـة الفقيـه نتيجـة طبيعيـة لتسـييس الفقـه الشـيعي، بـل كانـت ذروتـه. وهـي بـدأت نظريًّـا فـي العصـر القاجـاري[١٢] فـي بـلاد فـارس مـع المحقـق أحمـد النراقـي (توفـي ١٨٢٩م) فـي كتابـه «عوائـد الأيـام». وهكـذا باتـت حـدود نيابـة الفقيـه فـي عصـر الغيبـة لا تقتصـر علـى مـا جـرى عليـه المأثـور الشـيعي مـن القضـاء والحـدود وغيرهمـا، بـل تعـدّت كل ذلـك لتشـمل كل مـا ثبُـت للنبـي والأئمـة المعصومين فيـه الولايـة إلّا مـا أخرجـه دليـل نـصّ أو إجمـاع أو غيرهمـا. أي أن هـذه الولايـة للفقيـه بعـد أن كانـت مقيّـدة، صـارت مطلقـة بشـكل عـام. وهكـذا تـمّ الربـط بيـن ولايـة الفقيـه وولايـة الأئمـة المعصومين، وبشـكل خـاص ولايـة المهـدي الغائـب، بحيـث أصبـح الولـي الفقيـه نائبًـا خاصًّـا لـه رغـم عـدم وجـود نـصٍّ خـاص علـى ذلـك.

بعـد انتصـار الثـورة الإسـلامية فـي إيـران عـام ١٩٧٩، نقـل الخميني نظريـة ولايـة الفقيـه هـذه إلـى الدولـة، وهـو كان أيضًـا قـد أسّـس لهـا نظريًّـا فـي بدايـة السـبعينات مـن خـلال محاضـرات عديـدة طُبعـت لاحقًـا ونُشـرت تحت عنـوان «الحكومـة الإسـلامية». وهكذا أسّـس الخمينـي حكمًـا ووضـع دسـتورًا جديـدًا للبـلاد علـى هـذا الأسـاس. وقـد تـمّ اسـتخدام كل الوسـائل الممكنـة لتثبيـت تلـك النظريـة المرتبطـة بالإمـام المهـدي الغائـب، مـن إعلاميـة وثقافيـة وتربويـة وسياسـية وغيرهـا. لا بـل بـات للولـي الفقيـه سـلطة حتـى علـى التشـريعات وهـي متقدمـة علـى الأحـكام الإلهيـة ولا تتقيّـد صلاحياتهـا فـي دائـرة هـذه الأحـكام (صحيفـة «النـور» مـج٢٠).

وهكـذا بـات صاحـب السـلطة والسـطوة يكتسـي ثوبًـا مبـاركًا مطهّـرًا ممسـتمَدًّا مـن عالَـم التجـرُّد والقدسـية عالـم البركـة والطهـارة. وكمـا أوردنـا أعـلاه علـى لسـان روجيـه كايـوا، تـمَّ توظيـف المقـدّس مـن أجـل السـلطة. ذلـك التوظيـف الـذي جعـل السـلطة مقدّسـة، وجعـل المقـدّس سـلطة. (يراجـع فـي هـذا

(١٠) الغيبـة عنـد الشـيعة هـي أحـد المفاهيـم العقائديـة الأساسـية فـي المذهـب الشـيعي الاثنـي عشـري، وتشـير إلـى غيبـة الإمـام المهـدي محمـد بـن الحسـن، الـذي يُعتبـر الإمـام الثانـي عشـر فـي سلسـلة أئمـة الشـيعة، عـن الأنظـار منـذ عـام ٨٧٤ م. وفقًـا لهـذه العقيـدة، دخـل الإمـام المهـدي فـي "الغيبـة الكبـرى" بعـد وفـاة وكيلـه الأخيـر فـي ٩٤١ م. أمـا الغيبـة الصغـرى، فهـي الفتـرة التـي كان الإمـام المهـدي خلالهـا فـي اتصـال مباشـر مـع الشـيعة مـن خـلال أربعـة نـواب مختاريـن، وكانـوا يتلقـون الأوامـر مـن الإمـام وينقلونهـا إلـى الشـيعة. فـي هـذه الفتـرة، كانـت هنـاك إمكانيـة لرجـوع النـاس إلـى هـؤلاء النـواب فـي المسـائل الدينيـة والاجتماعيـة.

(١١) بحسـب العقيـدة الشـيعية الاثنـي عشـرية، اسـتمرت الغيبـة الصغـرى ٦٩ سـنة، وكانـت مـن عـام ٨٧٤ حتـى عـام ٩٤١.

(١٢) هـي الفتـرة التـي حكمـت فيهـا السـلالة القاجاريـة ايـران (بـلاد فـارس) مـن عـام ١٧٨٥ حتـى عـام ١٩٢٥. وقـد خلفهـم فـي الحكـم السـلالة البهلويـة.

الخصوص كتاب: الفقه السياسي الشيعي، من اعتزال الفقيه للسلطة الى القبض عليها، إصدار «أمم»).

قدسية الأصيل واعتبارية التابع

اعتبر الخميني، كما ورد في صحيفة «النور» (مج١٥)، وفي الولاية والمرجعية من المنظار التطبيقي، أن الحفاظ على الجمهورية الإسلامية في إيران من أوجَب الواجبات التي فرَضها الله بمعنى أن صيانتها أهم من الحفاظ على حياة شخص واحد ولو كان إمام العصر أي الإمام المهدي المعصوم.

إذًا، بالنسبة إلى إيران ولاية الفقيه، فإن الأولوية هي لبقاء هذه الدولة، والحفاظ عليها أهمّ من الحفاظ على حياة الإمام المعصوم، فكيف بمَن هو دون المعصوم من بشر ودول وأحزاب وغيرها!

بناء على هذه الثقافة، بات الجميع في خدمة دولة الفقيه، وباتت الدولة مقامَها، من غيرها، مقام القُطب من الرُّحى، وبات الحفاظ عليها أوْلَى من أي شيء آخر، اي أهم من لبنان وما فيه. وانطلاقًا من ذلك وجب فَهم طبيعة العلاقة بين إيران وأتباعها في لبنان، التي هي علاقة ذوَبان فيها وتماهٍ وتضحية لأجلها وليس علاقة حلفاء تجمعهم مصالح معينة وتتباين أخرى، ولو اعتبر السيد نصرالله، وفي معرض مواجهة خصومه المحلّيين الذين يعتبرهم أدواتَ وعبيدًا عند الخارج، أنهم في حزب الله سادة عند الولي الفقيه وليسوا عبيدًا، كما عبَّر عن ذلك في إطلالة تلفزيونية له في مطلع عام ٢٠٢٣ خلال احتفال بـ «جائزة سليماني العالمية للأدب المقاوم»، حيث عبّر عن ذلك شارحًا ما ورد على لسان محمد باقر الصدرعن الذوَبان في الإمام الخميني كما ذاب هو في الإسلام، قاصدًا أن يذوب الناس بولاية الإمام وقيادة الإمام.

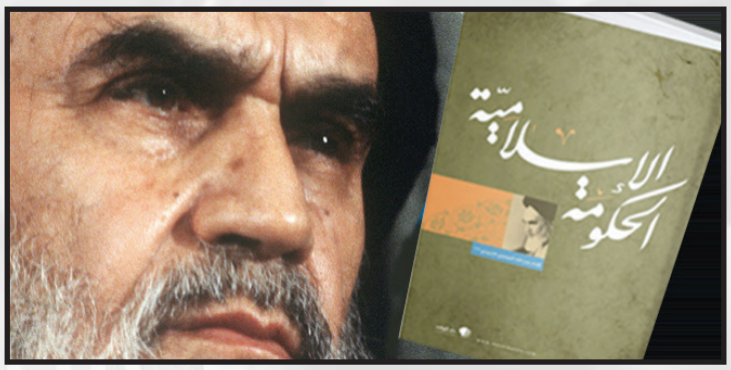

الخميني والحكومة الاسلامية

ففي عام ١٩٨٢ قدّمت الكيانات التي باتت تُعرف لاحقًا باسم «حزب الله» ما سُمِّي بـ«وثيقة التسعة»، وفيها أهداف ثلاثة، أحدها التسليم المُطلق بقيادة الولي الفقيه. واستمر الأمر على هذا الحال خلال فترة الثمانينات والتي شهدت انتخاب أول أمين عام للحزب وهو الشيخ صبحي الطفيلي، والذي استمرَّ على نفس المنوال في التبَعية المقدّسة للولي الفقيه الخميني خلال فترة ما عُرف بـ«حرب الإخوة» في مواجهة «حركة أمل» التي لا تقرّ ولا تتبع لهذا المبدأ. وكذا كان الأمر خلال فترة عباس الموسوي الذي خَلَف الطفيلي في المنصب والذي لم يعمِّر طويلًا فيه، بعد أن اغتالته إسرائيل.

تُعتبر فترة وجود حسن نصرالله على رأس الأمانة العامة هي الأطوَل[١٣]. حيث ساهَم خلال وجوده في منصبة في رفع هذه التبَعية إلى درجة عالية شعبويًّا وتثقيفيًّا لم تشهدْها فترة من سبَقوه، والذي ساهم في نموّ قوة الحزب بشكل بارز خلال تسلُّمه منصب الأمانة العامة. عن هذه الأصالة لإيران الولي الفقيه والتسليم المطلق لها، عبَّر السيد حسن نصرالله عنها في العديد من المواقف والتصريحات، حيث قال في إحدى المقابلات أنهم في «حزب الله» «لا ينتظرون الولي الفقيه ليطلب منهم شيئًا كي ينفّذوه، بل إذا علموا أنها رغبته في الشيء فإنهم ينفّذونه. وكذلك لا ينتظرون طلبه ليمتنعوا عن شيء كي يمتنعوا عنه، بل مجردِ أن يعرفوا أنه لا يريد ذلك فإنهم لا ينفّذونه». كما عبَّر في العديد من المناسبات أنه يفتخر أن يكون فردًا مُخلِصًا تحت راية حزب ولاية الفقيه.

ثورة ١٧ تشرين

إن هذه الثقافة، الجديدة والمستجدّة على الشارع الشيعي اللبناني، والتي تدعمها تصريحات الأمين العام بتأثيرات

(١٣) ولد حسن نصر الله في ٣١ آب ١٩٦٠ في بيروت. تولى قيادة حزب الله في لبنان منذ شباط ١٩٩٢، بعد اغتيال الأمين العام عباس الموسوي بغارة إسرائيلية في ١٦ شباط في بلدة تفاحتا الجنوبية. كان نصر الله يعتبر أحد أبرز قادة الحزب في لبنان، حيث أصبح الحزب في ظل توليه منصب الأمانة العامة قوة عسكرية وسياسية مؤثرة. ومع علاقاته الوثيقة مع إيران، أصبح نصر الله شخصية محورية في في المنطقة إلى ان اغتالته اسرائيل في ٢٧ أيلول ٢٠٢٤.

شخصيته جماهيريًّا والإمكانات الكبيرة التي وُضعت بتصرّفه جعلت ولاء القسم الكبير من الجمهور الشيعي لإيران الولي الفقيه ولمَن يمثّلها في لبنان على حساب أي شيء آخر، بما فيه لبنان نفسه. ويمكن ببساطة رؤية انتشار وإبراز أعلام الحزب وإيران على حساب العلَم اللبناني. بل إننا شاهدَنا عبْر الإعلام المرئي كيف كان يُنزع علَم لبنان عن الأعمدة والأسطُح ويُرفع بدلًا منه علَم حزب الله، إبّان تظاهرات وسط بيروت، في الفترة التي تلَت اغتيال الرئيس رفيق الحريري في ١٤ آذار ٢٠٠٥، وخلال تجمّع ثورة ١٧ تشرين الأول ٢٠٢٠. وتكرّر المشهد في مناسبات أخرى، منها ما حصل في ساحة المطران في بعلبك إبّان انتفاضة ١٧ تشرين ٢٠١٩.

إسقاطات مقدّسة وانعكاسات

إضافة إلى اعتبار نفسها مسؤولة عن الذَّود عن حياض الدّين،عمَدت المنظومة الإعلامية والثقافية والتربوية والسياسية، سواء في إيران أو خارجها، في لبنان، إلى التماهي الشديد بين شخصيّاتها السياسية والدّينية من جهة مع الشخصيات التاريخية المقدّسة من جهة أخرى. كما تمّ الربط أيضًا بين أحداث ومناسبات حصلت في أيامنا هذه مع مناسبات وأماكن تاريخية ذات أثَر مقدَّس في الوجدان الشيعي.

وإضافة إلى اعتبار الولي الفقيه نائبًا خاصًّا بالحق للمهدي الغائب، بات لدينا مثلًا مجموعة من الألقاب الجديدة التي تُسقَط عليه، وعلى من يمثّله في لبنان. وهكذا ظهرت عبارات من قبيل «علي العصر» و«حسين العصر» ويتمُّ إلباسَها للخامنائي وحسن نصر الله في خطوة تأثيرية شديدة على الذهن الجمعي الشيعي لما لهذا الذهن من ارتباط قُدسي وثيق بهذه الشخصيات رغم أن الثقافة الشيعية التاريخية كانت بعيدة عن هكذا استخدامات كونها وانطلاقًا من المَرويات تَعتبر أن أهل البيت لا يُقاس بهم أحد. كذلك وبنتيجة طبيعية بتنا نسمع عبارات «كربلاء العصر» نسبة إلى المكان و«عاشوراء العصر» نسبة إلى ما حدَث مع الإمام الحسين بحيث يتمّ إسقاطها على أماكن وأزمنة محدَّدة في فلسطين ولبنان وغيرهما، رغم أنه، وبحسب التراث الشيعي، و«لا يوم كيومك يا أبا عبد الله (الحسين) ». وقد وصل الأمر بهم إلى استخدام هذه الإسقاطات حتى خلال فترة الحرب ضد «حركة أمل» الشيعية، فبات إقليم التفاح مثلًا هو كربلاء العصر، وهم حسينيّو العصر، وخصومهم يزيديّو العصر.

من هنا، باتت المنابر وغيرها من الوسائل الإعلامية تستغلّ المناسبات، ومنها عاشوراء، لاستخدام هذه الإسقاطات. إسقاطات تجعل الروابط وثيقة بين الجماهير والشخصيات لتثبيت علاقة متينة تشبه العلاقة مع المعصوم، وتجعل من هذه الشخصيات فوق النقد مرسِّخة محرّمات جديدة في

الساحة الشيعية، الأمر الذي سينعكس في الواقع بشكل عنيف أحيانًا كرد فعل جماهيري على المسِّ بالمقدّس الجديد. شخصيات تُعتبر أنها مُسدِّدة ومُلهمة ومُكلّفة من الله بخصوص ما تفعله. وقالها حسن نصرالله في إحدى إطلاته التلفزيونية، في ردِّه على وتحدِّيه لأحد خصومه السياسيين: «مَن كلّفك بالدفاع عن اللبنانيين؟» مضيفًا: «حلّ عنّي، إنت أصلًا يعني إنت إنسان لتقلّي مين مكلّفك يعني؟ أنا الله مكلّفني، إنت مين مكلّفك؟ أنا الله مكلّفني، نحنا ناس الله مكلّفنا».

كل تلك الإسقاطات القُدسية، والمناصب الغيبية التي تمَّ تبنّيها ونشر ثقافتها، جعلت الجماهير المنقادة، وعلى حدِّ تعبير لوبون في «سيكولوجيا الجماهير»، تصبح بسهولةٍ جلّادة، وبنفس السهولة ضحية وشهيدة.

ثقافة القوة والنصر وتثبيت القدسيات

ضريح ناصيف النصار

بعد الانتقال من مرحلة التكوُّن في الثمانينات إلى مرحلة القوة في التسعينات ثم بعد الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان عام ٢٠٠٠ فحرب تموز عام ٢٠٠٦ ثم أحداث أيار واحتلال بيروت عام ٢٠٠٨، فالذُّروة التي اكتملت بمشاركة «حزب الله» في الحرب الأهلية السورية التي اندلعت عام ٢٠١١، بات هذا الخط الولائي التابع لولاية الفقيه، سواء في إيران أو في لبنان، يوظف مَواطِن القوة والنصر في تثبيت الحقّ الذي يراه من وجهة نظره. فباتت انتصاراته وقوته في ثقافته وإعلامه مرتبطة بأحقيته بخصوص خطّه وما يتبنّاه ويطرحه ويسلكه، وباتت مسيرته مسيرة إلهية مقدّسة، ودأب دومًا على الترويج لذلك عبر منظومة دعائية متنوّعة في مختلف المجالات مستخدمًا وسائلَ تأويلية تخدم مُبتغاه، وكأنّ الهزيمة والضعف هما إشارتان لِبطلان الخط. وهذا الأمر بِدعة جديدة لا أصالة لها، ولا تدعمها سيرة المقدّس الشيعي عبر التاريخ والذي تعرّض لكثير من الانتكاسات، بل في بعض المواضع للإبادات. وها هي سِيَر بعض الأنبياء والأئمة ورجالات الشيعة عبر التاريخ شواهد مبيّنة. ويصبّ في هذا الاتجاه أيضًا سيرة المجتمعات الشيعية في لبنان، والتي عانَت خلال مراحل عديدة لنكَبات، منها على سبيل المثال لا الحصر نكبة كسروان مطلع القرن الرابع عشر ميلادي[١٤] ونكبتا جبل عامل إبان حكم الجزار أواخر القرن الثامن عشر[١٥] ومطلع القرن التاسع عشر ومطلع نشأة لبنان الكبير بدايات القرن العشرين[١٦]. وانطلاقًا من ذلك النمط الثقافي الجديد، بات الاعتراف بالخسارة في أي موقعة غير مقبول، والخوض حتى الهلاك، مهما كانت النتائج، هوالمطلوب، وتأويل أي نتيجة أو موقعة بما يخدم القوة والنصر أسلوب خطاب وتحدٍّ. فكان أن صنعت ثقافة الاستقواء والنصر فائض قوة في العاطفة والذهن الجَمعي الشيعي الخاص، وفي كثير من المراحل، ليصل إلى مرحلة الغطرسة.

تقديس لدرجة الفداء له

إسلاميًّا، إن الله هو القصد من الأفعال. فالقتال هو في سبيل الله، والموت هو في سبيل الله، والإنفاق هو في سبيل الله. فكل الأعمال هي في سبيل الله لنَيل ثواب الآخرة.

وبحسب الموروث الشيعي إن المعصوم هو واسطة الفَيض الإلهي، وهو البرَكة التي من دونها لا تستمر الحياة. ففي الحديث إنه «لو رُفع الإمام من الأرض ساعة لماجت بأهلها كما يموج البحر بأهله»[١٧]. وإن الانتفاع من وجود المعصوم حتى لو كان غائبًا، كالمهدي، هو كالانتفاع من الشمس إذا غيّبتْها عن الأبصار السحاب[١٨]، وهو أمان لأهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء[١٩].

(١٤) نتجت هذه النكبة بعد سلسلة من الحملات العسكرية المملوكية على جبال كسروان، التي كانت معروفة آنذاك بمناعتها الجغرافية وصعوبة اختراقها. وكانت هذه الحملات جزءاً من السياسة المملوكية لتثبيت السيطرة على المناطق الجبلية التي تمردت أو رفضت الخضوع لحكمهم، بلغت هذه الحملات ذروتها في الحملة الأخيرة عام ١٣٠٥م، والتي كانت الأكثر شراسة وقسوة. وأدت إلى تهجير جماعي للسكان الذين اضطروا إلى التفرق في مختلف الاتجاهات، متوجهين نحو مناطق أكثر أمناً . أثر هذا التهجير على التركيبة الديمغرافية للمنطقة وأدى إلى تغييرات اجتماعية وثقافية لا تزال تداعياتها ملموسة حتى اليوم. (يراجع في هذا الخصوص كتاب: تاريخ شيعة لبنان من الماضي الغامض الى المستقبل المجهول، اصدار «أمم»).

(١٥) قام الوالي العثماني الجزار بقتل شيخ مشايخ جبل عامل ناصيف النصار وهدم بيوت زعاماتهم وحرق مكتباتهم وذلك بعد معركة يارون ١٧٨١ م ومعركة شحور ١٧٨٤.

(١٦) شن الكولونيل الفرنسي نيجر حملة على جبل عامل بسبب نشاطات العصابات المسلحة ضد الفرنسيين والسكان المسيحيين والمسلمين. وانتهت في ٥ حزيران ١٩٢٠ بهزيمة نكراء للعامليين.

(١٧) المجلسي، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣ م، ج ٢٣، ص ٣٤

(١٨) المجلسي، بحار الانوار، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٩٨٣ م، ج ٥٢، ص ٩٣

(١٩) المجلسي، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣ م، ج ٧٥، ص ٣٨٠

انطلاقًا من ذلك يمكن فَهم فكرة الفداء للمعصوم على اعتبار أنه واسطة الانتفاع من الله تكوينيًّا والطريق إليه تشريعيًّا. فالحياة لا تستمر من دونه المعصومين، ووجود الناس مَدين لوجودهم. والحق لا يُؤخذ إلّا منهم وعِبرهم. ولذلك فإن التضحية الشيعية في سبيلهم هي تضحية من أجل قضية راقية تحمل في طيّاتها ذلك البُعد المقدّس.

لكن ماذا عن الفداء للإنسان غير المعصوم ممّن لا تنطبق عليه هذه الصفات؟ من هنا كانت ضرورة الربط بين الولي الفقيه ومَن يمثّله في الخارج، ومنه لبنان، من جهة والإمام المعصوم من جهة أخرى لشرْعنة ذلك الفداء في المنظور الدّيني. فالولي الفقيه بات ظلّ الإمام الغائب، وله من الولاية كالمعصوم، لذلك بات استتباع فداء كل شيء له على أنه الطريق إلى الله.

صورة من موقع اغتيال صالح العاروري

وهكذا انتشرت ثقافة الفداء في المجتمع الشيعي اللبناني، وبات كل شيء حتى الأرواح فداء للولي الفقيه وفداء لـ«حزب الله» وفداء للأمين العام للحزب. فبُتنا نسمع ونقرأ هذه العبارات عند كل مستجدّ، حتى باتت مُلازمة له. ووصل الأمر إلى أبعد من ذلك من خلال الفداء للحذاء، أي «الصرماية» بالتعبير الشعبي الدارج. فبات سَماع عبارة «فِدا صرماية السيّد» عبارة يومية نسمعُها عند كل مناسبة أو تضحية. كيف لا والسيد نصرالله ومَن يمثّله، وإضافة إلى البُعد السياسي الذي يمثّلونه، يعتبرون أنفسهم أولياء الدّين الأصيل والذابّين عنه. وهكذا يصير الفداء لهم فداء للدِّين. وقد كرّروها مرارًا وأسقطوها على مختلف المناسبات. ففي شباط ٢٠١٥ في الذكرى السنوية لقادة «حزب الله» راغب حرب وعباس الموسوي وعماد مغنية، قال نصرالله وبكل وضوح، متحدّثًا عن دورهم في الصراع في المنطقة والآخذ بُعدًا مذهبيًّا: «نحن ندافع عن الإسلام وعن دين محمد بن عبد الله».

وقد تعزَّزت صورة الفداء هذه، جماهيريًّا، مع مقتل نصرالله

من موقع إحدى الغارات

في ٢٧ أيلول ٢٠٢٤ خلال حرب إسرائيل المفتوحة على لبنان والتي توسَّعت بعد شهور كما أطلق عليها نصرالله «حرب إسناد غزة».

فائض القوة المقدّس مفتاح للطغيان

في المجتمع الروماني الوَثني، كانت الجماهير تأخذ القرار بمعاقبة الشخص الذي يُسيء إلى الدّيانة، وفي حال حصل القتل يُعتبر القاتل بريئًا ولا يُدان. وفي الإسلام هناك ممارسة من هذا القبيل، بخصوص شتْم النبي عند المسلمين السُّنّة والذي يُحكم عليه بالردّة بسبب هذا الفعل، لكن التنفيذ يكون من خلال الحاكم أو مَن يقوم مقامه منعًا لتفلّت الأمور وصولها إلى فساد أعظم. أما عند الشيعة فالأمر يعود إلى الإمام المعصوم في تنفيذ الحُكم. وفي غياب الإمام، يجب قتل شاتم النبي والأئمة والزهراء، ما لم يخفِ الضرر على نفسه أو عِرضه أو ماله ونحو ذلك، ولا يحتاج جواز القتل إلى إذن من الحاكم الشرعي، كما عند المرجع السيد الخوئي في «منهاج الصالحين». وذكر الشيخ محمد النجفي[٢٠] في «جواهر الكلام» أن «من سبَّ الإمام أو النبي أو الزهراء وُجَب قتلُهُ بلا خلاف، على اعتبار أنهم من شعائر الله وهتْكُهم هتكٌ لحرمة الله».

في إيران الجمهورية الإسلامية بات الخلاف مع الولي الفقيه من المحرّمات، حتى ولو كان المخالِف من المرجعيات الدّينية أو من أصحاب التاريخ النضالي إبّان الثورة ضد الشاه، أو من أصحاب

(٢٠) الشيخ محمد حسن النجفي (١٧٨٦-١٨٥٠) هو أحد أعلام الفقه الشيعي البارزين في القرن التاسع عشر، ويُعرف بلقبه «صاحب الجواهر» نسبةً إلى كتابه الشهير «جواهر الكلام» في شرح شرائع الإسلام. يُعد هذا الكتاب موسوعة فقهية شاملة ومفصّلة، تناول فيها الشيخ النجفي جميع أبواب الفقه الإسلامي وفقاً للمذهب الإمامي الاثني عشري.

المناصب الرسمية في الدولة الجديدة. وهكذا تمَّ التعامل بقسوة مع جُملة من الشخصيات هناك، كالمرجع شريعتمداري الذي أُذِلَّ إعلاميًّا ووُضع بقية حياته قيد الإقامة الجبرية ومُنعت إقامة مراسم العزاء له وتمّ التعرُّض لمن حاول مخالفة ذلك ومنهم محمد رضا الصدر شقيق موسى الصدر فكتب «الوجيزة في سجن ولاية الفقيه». كذلك كان للشيخ حسين منتظري، نائب الولي الفقيه، وأهمَّ من نظَّر لها، ولشقيق صهره مهدي الهاشمي نصيب من الإذلال والملاحقة. ونال أيضًا الفقيه الرستكاري وآخرون نصيبهم من السجن.

أما في لبنان المتنوِّع طائفيًّا وثقافةً وحزبيًّا لم يختلف الأمر في الجوهر، ولو اختلف الأسلوب. فبات فرض الخيارات على الآخرين، والقائم على فائض القوة لا على منطق المؤسسات، مفتاحًا للهيمنة. ومَن ينسَ أحداث ٧ أيار في بيروت وما بعدها، انطلاقًا من مقولات كـ«ما بدنا ياكن تنسو هَليوم» و«إنه يوم مجيد»، ويوم القمصان السود والتهديد بقبع المحقّق البيطار في حَرَم وزارة العدل وغيرها من الأحداث التي أوصلت الجماهير إلى مرحلة باتت عبارات «مِتل ما بدّها صرماية السيد بيصير بالبلد» متداوَلة على ألسُن جماهير الحزب!

إن هالة القداسة التي أُحيطت بها الشخصيات الدّينية، ومنها شخصية الأمين العام لـ«حزب الله» حسن نصرالله جعلت من فكرة التعرُّض له تعرُّضًا للمقدَّسات بالنسبة إلى جمهور الحزب. ونتيجة لذلك كانت ردّات الفعل متساوقة مع واقع الحال هذا، ويدعمها فائض القوة الموجود عند الطائفة الشيعية عامة و«حزب الله» خاصة مقارنة بما لدى الدولة اللبنانية أو الأحزاب اللبنانية الأخرى من قُدرات وإمكانات.

ففي عام ٢٠١٣ وعندما تمَّ التطرُّق إلى نصرالله في شخصية كاريكاتورية ضمن برنامج «بس مات وطن» الفكاهي للمخرج شربل خليل على قناة «أل بي سي» التلفزيونية اللبنانية، استُنفرت الجماهير في مختلف المناطق وقُطعت الطرقات وأُحرقت الإطارات المطاطية واعتُدي على الأملاك العامة وأُطلق الرصاص في بعض المناطق، الأمر الذي استدعى توقُّف البرنامج عن البثّ لفترة. وقد أعادت هذه الصور الأذهان إلى حالة مشابهة كانت قد حصلت عام ٢٠٠٦ عندما قام شربل خليل نفسه بتقليد شخصيته أيضًا.

أتت ردة الفعل الجماهيرية شديدة رغم أن مُخرج البرنامج قد تعرَّض أيضًا في حلقات أخرى للبطريرك الماروني ولشخصية النبي يونس وغيرهما. نعم، لم يعد نصرالله مجرد شخصية سياسية في منصب أمين عام لحزب سياسي بل بات شخصية لها قدسيّتها، إذ ظهَر ذلك من خلال التعاطي معها وردّات الفعل على أي عمل أو تصريح يتعلق بتلك الشخصية، ولو أن المقدِّسين له يتحرَّكون أحيانًا تحت ذريعة التعرُّض للمرجعيات الروحية والديانات السماوية أو إثارة النعرات الطائفية أو المسِّ بالسلم الأهلي، رغم وجود مبدأ حرية التعبير في لبنان.

تقليد الأمين العام السابق لحسن نصر الله على شاشة LBC

وكذلك الأمر حصل بعد مقتلِه، فالقداسة تأجَّجت كونها بالنسبة إلى الجماعة قد اختلطت بالدم على خُطى الحسين. فعندما تمَّ تسريب مقطع صوتي للفنان راغب علامة يظهر ارتياحه لموت نصرالله، هاجت الجماهير وهاجمت إحدى المدارس التابعة للفنان في منطقة السان تريز في الضاحية الجنوبية، والتي يتبع تلامذتها في أغلبيتهم الكبرى إلى نفس الطائفة ونفس الجمهور، فأحرقوا محتوياتها وكسّروها وأضرموا النار فيها.

كذلك أدّت هذه القداسة التي كلَّل «حزب الله» بها أمينه العام، إلى انتشار ثقافة السحسوح ضد الأفراد الشيعة الناقدين أو المعارضين في المجتمع الشيعي إلى درجة ارتبط هذا العنوان به. فعند أي انتقاد للحزب أو لأمينه العام، لأسباب

مختلفة، كان يطلُّ المنتقِد لاحقًا في فيديو مسجَّل ليعتذر عن «جريمته» التي اقترفها في مشهَد مُذلّ، ومَن لم يفعل ذلك كان أحيانًا ينال نصيبه من الاعتذار المُذلّ أو التعرُّض له بطرق أخرى. كذلك كان لوَقع هذه الثقافة آثارها المغالية عند عامة جمهور الحزب التي باتت تستسهل أي شيء طالما هو يمسُّ المقدّس. فأبدت مثلًا قبولها الطبيعي لمقتل شخص من بلدة عيتيت الجنوبية، على يد القوى الأمنية، لمجرد أنه كان ينال من شخصية المقدّس ويحرِق صوَره.

اغتيال السيد نصر الله: نور من نور

في ٢٧ أيلول ٢٠٢٤، وبعد أربعة أيام على إعلان إسرائيل حربها على «حزب الله» التي أنهَت حوالى سنة من «حرب الإسناد والإشغال» التي أطلقها الحزب بعد يوم واحد من انطلاق حرب غزة، كردِ فعلٍ إسرائيلي على ما سُمِّي عملية «طوفان الأقصى»، اغتالت إسرائيل الأمين العام لـ«حزب الله» حسن نصرالله في منطقة حارة حريك بواسطة قنابل خارقة للتحصينات والأنفاق، سوَّت العديد من المباني مع الأرض.

بعد الوصول إلى مرحلة وقف إطلاق النار بعد حوالى الشهرين من بدء الحرب المذكورة، وبحضور جماهيري، أطلق «حزب الله» فعالية «نور من نور» من مكان اغتياله الذي بات مكانًا ذو رمزية وقدسية خاصة، كونه المكان الذي فاضت فيه روح الأمين العام على غرار أرض كربلاء التي شهدت مصرع الإمام الحسين. وشهدت الفعالية إضاءة الشموع ورفع صوَره على المباني المحيطة، مع إضاءة إحداها وأُطلقت هتافات «لبّيك يا نصرالله» و«لبّيك يا حسين» تشبُّهًا وتماهيًا مع مقتل الإمام الحسين في موقعة كربلاء. وهكذا بدأت تنتشر عبارات من قبيل «الشهيد المقدّس» و«الشهيد الأقدس»، مقرونة بذكر السيد حسن نصرالها أو للدلالة عليه حتى دون تسميته، والذي يعتبره أتباعه شخصية مُلهمة ساهمت بصناعة القوة المقدّسة للطائفة الشيعية وارتبطت به لعقود.

لم يمرُّ العنوان الخاص بهذه الفعالية دون ضجة وردود أفعال من أطراف أخرى مناوئة للحزب، فعبارة «نور من نور» هي من صُلب الإيمان المسيحي الذي هو المسيح الابن من الأب، الإله الحق من الإله الحق. فالأب نورٌ والابن المولود منه وغير المخلوق هو نورٌ من نور، وبالمعنى اللاهوتي لا المادي.

نشاط نور من نور من موقع اغتيال الأمين العام لحزب الله

الفراغ في المقدّس بعد رحيل نصرالله

شهدت هذه الحرب العدوانية والواسعة نجاح إسرائيل في قتل قيادات «حزب الهي» على أعلى المستويات. فحتى مَن كان يُعمل عليهم كأمناء عامّين مستقبليين، لم ينجو من هذه الحرب. فقد كان من الأسماء المطروحة لهذا المنصب هاشم صفي الدّين، وكان مطروحًا أيضًا اسم نبيل قاووق. والاثنين لقيا مصرعهما في تلك الفترة. ولذلك كان نعيم قاسم هو الخَيار المُتاح لهذا المنصب، رغم صعوبة إحاطته بهالة من القدسية الضرورية، والذي اعتادت عليه الجماهير لعقود مع منصب الأمين العام السابق حسن نصرالله.

نعم، ليس من السهولة إشاحة القدسية عن منصب الأمين العام، فالأمر قد استهلك الكثير من الجهد وبشكل جدّي على مختلف الأصعدة، الاعلامية والثقافية والدّينية لعقود طويلة، لما له من إرتباط بالولي الفقيه ظلِّ الإمام المهدي الغائب، أو نائبه بالحقّ كما هو شائع في أدبيات الحزب. وإبعاد العمامة عن هذا المنصب قد يفسح المجال لتحول جديد في أدبيات الحزب قد يشبه ما عليه الأحزاب الأخرى في هذه البلاد.

وهكذا بات الحزب أمام واقع جديد يفرض عليه تعاطيًا مختلفًا بخصوص شخصية منصب الأمين العام الجديد. فمعطيات القدسية تحتاج إلى سيرورة معيّنة يبدو أنها بعيدة عن شخص الأمين العام الجديد نعيم قاسم، الأمر الذي يضع الحزب أمام تحدٍّ جديد وعلاقة جديدة تربُطه بجماهير الحزب.